الفصل الأول:
فتح الله كولن.. رائد النهضة الراشدة في تركيا

- الأستاذ فتح الله كُولَنْ وإنشاء حدائق الإبداع الحضاري
- داعية يولد للإنسانية كلّها

الأستاذ فتح الله كُولَنْ
وإنشاء حدائق الإبداع الحضاري[1]

قال الراوي:

كانت خريطة الأرض يوشك أن ترسم بريشة الإلحاد.

ونظر "خُوجَا أَفَنْدي"[2] حوله، وتساءل: "أليست وراثة الأرض للصالحين؟!"

واتخذ قراره.. لن نترك الأرض لظلمة الإيمان... وراح يغوص في جهود أبطال الإحياء، والبعث بالإيمان..

قرأ إحياء علوم الدنيا في تراث الأسلاف، وقرأ إحياء علوم الدين للغزالي، وحجّة الله البالغة للدهلوي، وأبحر في عالم المعاصرين المجددين في تركيا والشام والهند والجزائر... وأسعدته تلك القراءات المعاصرة للقرآن، تلك التي جمعت بين التفسير، والتربية والفقه والتذكير... قرأ التحرير والتنوير لابن عاشور، ومجالس التذكير لابن باديس.. وقرأ الظلال، وقرأ -قراءة عميقة- "رسائل النور" لأنها الأقرب إلى نفسه في الزمان والمكان والتحديات.

---

[1] مجلة حراء، العدد:١٦ (يوليو-سبتمبر ٢٠٠٩).

[2] "خُوجَا أفندي" هو اللقب الذي يُطلقه أبناء تركيا على الأستاذ فتح الله كولن، وهو يعني "السيد الأستاذ".

وقد أتيح لصاحب رسائل النور -نتيجة ظروفه- أن يعيش مع الطبيعة، وأن يتصل بالكون، وبخالق الكون، من خلال كلمات الله الكونية.. فجاءت رسائل النور كأنها تنزيل من التنزيل.. ونفذت أشعّتها -مع أشعة الشمس- إلى قلوب الناس وكيانهم وعقولهم.. فتأصلت، وحملت العناية الربانية كلمات الرسائل وبذورها الإيمانية مع الرياح السائرة هنا وهناك، لتسقط منها حبة هنا، وحبات هناك.

* * *

قال الراوي:

والآن يا صاحب الرسائل، يا سعيدنا الجديد!

ها أنت تودع الأصحاب، وملايين الطلاب، بعد أن واجهت -بالأمل في مستقبل الإسلام- وبالثقة الكاملة في وعد الله ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(التوبة:٣٣).. وبانتصار عالم القرآن على كل فلسفات الإلحاد والمادية.

والآن، يا كل دعاة الإيمان، يا أفغاني، يا محمد عبده، يا رشيد رضا، يا أرسلان! لينم كل منكم في قبره مأجورا، مسرورا...

وأنت يا صاحب الرسائل!

والآن، بعد ذهاب القرن الأسود،

نمْ مسرورا في قبرك وتنعّم..

فالوعد الحق سيجعل قبرك إشعاعا من فكرك،

قبرا محفورا في الأعماق.

فرسائل نورك مصباح لك في دنياك وأخراك،

في ساعة يُسرك أو عُسرك..

* * *

يا صاحب الرسائل،
يا زارع البذور في حقول الإيمان!
ها أنت هنا مسرّحا من وظائف الفناء،
كما علَّمتنا في رسائل الضياء..
ها أنت هنا تعيش ناعمًا في عالم البقاء،
عابرًا دونما إبطاء ودونما انقطاع،
مُبْحرا من عالم الشقاء والصراع،
أحلام قبورية...

* * *

يا صاحب الرسائل!
إخلاصك حتى في قبرك نورانية...
ذات ليلة يا سيدي،
يوم كنت تغوص في رسائل الإمداد،
تكتب بالعين والسمع والفؤاد،
تنقل من عالم العطاء والإسعاد..
غفوت والنور في راحتيك،
رحلت بروحك من عالم الأشياء،
ورحت تكلم الموتى مع الأحياء..
لا جسم لك، لا جرمَ لك،
لا نسمة من الهواء..
ها أنت هنا تعيش في عالم القبور،
قبرك من نور،

وفؤادك يرنو للبيت المعمور،
يرنو للّوح المحفوظ المسطور،
يسأل في لهفة حب وسرور،
وأنت تهرول حول اللوح، وتجري وتدور:
يالوح الكون ويا قلم القُدرة،
يا مخزن أسرار الكون المستور!
ترفع صوتك في قبرك، في الملأ الأعلى، وتنادي:
أخبرني عن أهلي، عن مليار مقهور،
يؤمن بالله ويشهد بالتوحيد،
ويصلي، ينتظر البعث المقدور،
يؤمن بالنّصر الآتي،
لكن لا يعرف كيف يسير؟!
أخبرني يا لوح الغيب الأعلى،
عن يوم النصر المبرور.
في الغفوة وبإحساس القلب المقهور..!
في تلك الومضة واللحظة،
ظهرت في القبر ملامح عصر يأتي،
يُبعث الإنسان المسلم، إنسان النور.
ها هي -يا سبحان الله- مظاهر أحلامك،
أقوى من كل الأحلام،
رسالة من القبر...
وهتفت بأنشودة آمال رمزية،

تقول لإنسان الإيمان المنتظر الأعلى:
يا من يختفي خلف عصر شاهق،
لما بعد ثلاثمائة سنة يستمع إلى كلمات النور،
بصمتٍ وسكون..
يا من تتسمّون بسعيد وبحمزة، وعمر،
وتُدعون بعثمان وطاهر أو يوسف وأحمد.
إني أتوجه بالخطاب إليكم،
ارفعوا هاماتكم وقولوا:
"لقد صدقت"...
وليكن هذا التصديق دَيْنا في أعناقكم.
إنني أتكلم معكم عبر أمواج الأثير،
الممتدة من الوديان السحيقة للماضي المسمى بالتاريخ،
إلى ذرى مستقبلكم الرفيع..
ما حيلتي،
لقد استعجلتُ، وشاءت الأقدار،
أن آتي خضم الحياة في شتائها..
أمّا أنتم، فطوبي لكم وألف طوبى،
ستأتون إليها في ربيع زاهر كالجنة..
إنّ ما نزرعه الآن يُستنْبت من بذور النور،
فتتفتح أزاهير يانعة في أرضكم..
نحن ننتظر منكم لقاء خدماتنا،
أنكم إذا جئتم لتعبّروا إلى سفوح الماضي،

عرّجوا إلى قبورنا،
واغرسوا بعض هدايا ذلك الربيع
على قمة "القلعة" المستضيفة لرفاتنا وعظامنا...
سنوصي الحارس ونذكّره: نادونا،
ستسمعون صدَى "هنيئًا لكم!" ينطلق من قبورنا...

لقد كانت هذه الكلمات "الأخروية" أنشودة نورانية ذات وقع خاص، وكان لها تأثيرها الكبير في نفوس طلاب الآخرة، طلاب الإيمان، البارزين الزارعين الزاهدين العابدين لله...

"كولن" وحدائق الإبداع الحضاري

قال الراوي:
كانت كلماتك -يا صاحب الرسائل- آمالا علوية،
كانت أدعية خاشعة ترشح بالإخلاص.
في قبرك لم تنس الأمة،
فتقلَّب وجهك في الأفق الأعلى...
تدعو بلسان الروح،
لسان القلب المجروح...
فتقبلها الله، وحققها في أرض الناس..
ليس بعد ثلاثمائة سنة، لكن في سنوات خمسين..
أجل..فقط في سنوات خمسين..
منحة رحمن وكريم!
هبَّت ريح الإيمان،

وظهر الفيض الرباني،
وتجلىّ في "فتح الله"...
منحة رب رحمن،
لإمام يحيا في "النور الخالد"...
يعشق أعظم إنسان، معجزة الإنسانية...
أحلامه أكبر من كل الأحلام،
أقوى من كل الآلام.
يعرف كيف يجيب على "أسئلة العصر"،
ويحل الألغاز السحرية...
جاء يخاطب كل الناس،
ويحاور عقل العالم، بوسائله العملاقة..
فالعقل المسلم قادر -يأخذ بالألباب- لو عرف "الموازين" و"أضواء الطريق"،
وتسلح بـ"النور الخالد"
وبـ"طرق الإرشاد في الفكر والحياة" العملية.
وهناك تألق "فتح الله"،
يبني ويقيم صروحا للروح،
في كل الأيام وكل الأعمال...
يصعد بالقانعين السفوح، إلى عالم "التلال الزمردية"،
ليعيشوا بالكلمة والعقل: حياة القلب والروح معا،
في توازن غابت معالمه منذ عقود،
بناء إنسان "النور الخالد"...

ولما كان الناس قد اختلطت لديهم "حقيقة الجهاد وروحه"،

وجروا الإسلام إلى معارك فوضوية،

حتى في داخل البيت المسلم نفسه،

وأعطوا الفرصة لتعاون الداخل مع الخارج في تشويه الإسلام والتربص بالعاملين له..

فقد كتب الأستاذ الواعظ الإنسان،

كتابه عن "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام"،

مبيّنا وظيفته الحضارية وأطره الإنسانية ودفاعه عن المقهورين ونشر المعاني الواسعة له، جهادًا بالعلم والمال والفكر والبناء الحضاري...

وهكذا عمد الأستاذ الواعظ "خوجا أفندي" "العالم الإنساني" إلى العمل على بناء إنسان جديد من خلال عدد كبير من الدراسات التي ترجم أقلها إلى العربية ومازال أكثرها حبيس اللغة التركية، مع أن العرب أحوج من غيرهم إليها ليدركوا -من خلالها- كيف تكتشف "أضواء القرآن في سماء الوجدان" ويدركوا حقيقة الخلق الإلهي، ودحض "نظرية التطور" التي سيطرت على العرب عدة عقود...

وليعرفوا -كذلك- أبعاد مشكلة "القدر والقضاء، في ضوء الكتاب والسنة"، وكيف أنه لا يسلب الإرادة الإنسانية، ولا تفتر بالعقل عن إرادة البناء الحضاري...

وكيف أن الإيمان الحق به عنصر فاعل إيجابي، يدفع إلى الكسب والأخذ بالأسباب دون عبادة الأسباب أو نسيان قدرة مسبب الأسباب، الذي لو شاء لأوقفها لحكمة يريدها ولإظهار تجليات قدرته ﷻ.

عبور الفجوة وملء الفراغ

كان العالم قد انتهى بنهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) إلى وضع مأساوي، وسيطر اليأس على العالم. وبدلاً من أن يلجأ إلى العدل والرحمة توحشت لديه معاني القوة، وأصبحت فلسفة "نيتْشة" و"الفاوسْتية" -القائمة على البقاء للأقوى- هي المسيطرة.. وضاع معنى الحق أمام القوة، ومعاني العدل والرحمة أمام الجشع الذي أقبل عليه المنتصرون. وسحبت كل الوعود الخدّاعة بـ"العدل والمساواة والحرية" التي بذلت أثناء الحرب وقبيلها للشعوب المغلوبة على أمرها والقوى المستضعفة -بالطبع- لاعتبارات مصلحية توجبها الحرب.

وانفجر الموقف العالمي، وعمت الثورات، بعد أن خدع العالم باتفاقيات سلام.. لكن الأمر كان تقسيمًا للتركة العالمية بين الأقوياء والمنتصرين على حساب المقهورين الذين عدّوا ذلك خيانة وغدرا ونكثا للعهود. فأصيبت الأخلاق الإنسانية في الصميم.

وهنا وجد الأستاذ "فتح الله كولن" أن البشرية لم تعد مرشحة لإنشاء قوى تعمل على العدل والرحمة. لقد فقدت الإنسانية عقلها وقلبها ورشدها.

مقاومة الغارة على الإنسانية

ونظر الأستاذ فلم يجد أمامه إلا الفكر الإنساني التربوي النبوي الشريف وأفكار السائرين في الطريق نفسه. ورأى أنه في مواجهة هذه القوى العالمية لا معنى للصدام أو الثورات أو الصراع، بل لا بد من طريقة إنسانية نبوية لمخاطبة الإنسان نفسه، قلبه وروحه وما بقي يقظا من عقله.

ووجد الأستاذ أن العالم المنتصر بعد أن هزم المقهورين بقوته العسكرية بدأ يغزو كل إنسان وكل بيت، فلم تعد كتائب المستشرقين، ولا قوافل المنصرين، ولا قوى النفاق الداخلية كافية لتحقيق "عولمته" والعبث بالعالم كله، بكل رجل وكل امرأة وكل شاب، كما يشاء، يصوغهم كما تصاغ التماثيل المنحوته على النسق الذي يهواه فنانها.

وفي هذا السياق انتشرت أجهزة التلفاز والقنوات الداخلية والفضائيات الموجهة.. وانتشرت الإذاعات والصحافة عابرة القارات ودور النشر العملاقة.. وانتشر ما هو أخطر من كل هذه على الحياة وهو "الإنترنت".

ولم ييأس الأستاذ، بل قرر أن يكون مصباحا يجوب العالم، وينافس الظلام في كل مواقعه. وبارك الله له في نيّاته، وفي رجال الخدمة والأقوال والأعمال. فسخر الجميع كل جهودهم لتنمية بذور الإيمان. وانطلقوا إلى العمل في كل المجالات.. فهذه جريدة يومية مليونية، وهذه مجلات أسبوعية بالتركية وغير التركية. وهذه قنوات تلفازية قادرة على إنتاج تمثيلياتها وبرامجها. وهناك جامعات ومدارس مبثوثة في العالم التركي وخارجه، وتتميز بالعصرية وبالأصالة التي تقرها القوانين. وهذه مدن جامعية، وهذه مستشفيات على أفضل وجوه عرفتها الحضارة الحديثة.

وكانت خريطة الأرض بين يديه وهو يعالج أمراضَ إنسانية عجزت عن وجود من يهتم بإنسانيتها، ويضع الدواء لأمراضها الأخلاقية والحضارية، ويعيد للإنسان "الموازين" الصالحة لتحقيق حياة أفضل يتعانق فيها الإيمان مع التقدم مع الأخلاق، ويتم فيها التكامل بين الحق والقوة.

كان الأستاذ -بيقين- قد قرأ أحلام دعاة التغيير والتمكين، التي كل منهم أمل أن يرى استجابتها الحية في حياته أو في قبره، ويهنئ أصحابها

الذين استحقوا من الله التمكين، والذين سيمرّون أمامه ويشاهدهم من قبره فيرى بشائر انتصار الإسلام على وجوههم.

وعندها يطلب منهم الدعاء، لأنه وتلامذته هم الذين بذروا البذور، وعاشوا شتاء الحياة في ظل الإلحاد، وعانوا الكثير.

وها هم الحاصدون للزرع القادمون الوارثون للأرض الذين يعيشون ربيع الإيمان، يمرون أمامهم ويشاهدونهم وهم في قبورهم، فيفرحون، ويسعدون بهم، ويقولون لهم: "هنيئا لكم.. اذكرونا، اسألوا الله لنا الرحمة والفردوس الأعلى.. فنحن السابقون الزارعون للبذور في الشتاء القاسي، وأنتم اللاحقون الوارثون للأرض في ربيع الإيمان"...

فالنور يلد نورا.. وصدق ربنا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٥-١٠٧).

داعية يولد للإنسانية كلّها

ووالدٍ وما ولد

نِعْمَ الوالد ونِعْمَ الولد ونعم البلد، ولد محمد فتح الله كولن في ١٩٣٨م[٣] في قرية صغيرة تابعة لقضاء "حسن قلعة" المرتبطة بمحافظة

---

[٣] من المفيد تسجيل ما يلي حول تاريخ ميلاد الأستاذ فتح الله كولن نظرا لورود تواريخ مختلفة في بعض المصادر قد توقع القارئ في حالة من اللبس، ولعل هذا التوضيح يزيل اللبس الموجود حول هذا الموضوع. لقد ولد الأستاذ فتح الله كولن يوم ١١ من شهر نوفمبر ١٩٣٨، فذهب والده رامز أفندي إلى إدارة تسجيل المواليد ليسجله، وكان ذلك في عهد حكم الحزب الواحد حيث سيادة الفكر السلطوي العلماني مستحكمة. وما أن سمع الموظف باسم "محمد فتح الله" حتى ثار محتدا وقال "ممنوع تسجيل هذا الاسم". فغضب الوالد وعاد إلى قريته خاوي اليدين. بعد عامين ونصف ولد لرامز أفندي مولود آخر أحب أن يسميه "صبغة الله"، فلم يذهب إلى إدارة التسجيل إلا بعد عام ونصف، أي بعد ولادة فتح الله بأربعة أعوام، ولكن هذه المرة استعان بضابط مخفر القرية الذي كان يحترم رامز أفندي ويحبه. فذهبا معا إلى مصلحة التسجيل، وعندما اعترض الموظف مرة أخرى، صرخ الضابط في وجهه وطلب منه أن يسجل الاسمين وفق طلب الوالد، ثم غادر المصلحة. ولكن الموظف أبى إلا أن يسجلهما كما يحلو له، حيث سجل "صبغة الله" بـ"سيف الله".. وسجل "محمد فتح الله" بـ"فتُّ الله" (بحذف الحاء وحذف محمد)؛ كما سجل تاريخ ولادتهما في نفس العام، أي ١٩٤٢. فكان تاريخ ميلاد محمد فتح الله ٢٧ أبريل ١٩٤٢ في السجلات الرسمية، بدلا من ١١ نوفمبر ١٩٣٨. وفي عام ١٩٥٩ قدم الأستاذ فتح الله طلبا في مدينة أدرنة ليتم توظيفه إماما في أحد المساجد، فبدا أن عمره لم يتجاوز ١٧ سنة حسب التسجيل الرسمي، ومن ثم يتعذر عليه أن يتولى وظيفة رسمية، حيث إن شرط التوظيف

"أرضروم" وهي قرية "كورجك"، ومنذ شب عن الطوق وهو يعيش في بيت أبيه رامز أفندي الذي كان عاشق علم ورقائق ومواعظ، وأكثر من كانوا يفدون عليه هم طلاب العلم وبعض العلماء الذين يؤثرون الزهد والابتعاد عن الواقع اللاديني القاهر.

وهكذا زرع والده "رامِزْ أفنْدي" ووالدته "رفيعة هانم" في نفسه حب مجالسة الكبار والعلماء، لدرجة أنه -منذ النشأة الأولى ومع تفتّح عقله- تلقى العلم على أفاضل العلماء كالشيخ "محمد لطفي أفندي" الذي أثر فيه إلى الحد الذي جعل كولن يقول: "أستطيع أن أقول بأنني مدين للشيخ لطفي بقسم كبير من مشاعري وأحاسيسي وبصيرتي، لما كنت أسمع وأرى منه الآن".

وكذلك كان "عثمان بكتاش" الذي درّس عليه الفقه والأصول والعقائد. كما تعلم العربية والفارسية من والده المغرم بالقراءة والاطلاع، وكان يترنم بالقرآن في غدوه ورواحه، ويترنم بآيات ومأثورات من الشعر العربي والفارسي وأقوال الصحابة والتابعين، دائم الذكر والاستشهاد بحديث رسول الله ﷺ في سياق واحد.

إنه يبني نفسه روحيًّا ومعنويًّا، لكنه يعلم أننا في عالم العلم والفلسفة العقلية، ولذلك أعدّ نفسه ليكون مسلمًا معاصرًا بوجدانه وبعقله وبقدرته على تشريح أفكار العصر الفلسفية والاجتماعية والفكرية المغلوطة، وطرح البديل الإسلامي الميسور، والردّ على الأسئلة الحائرة التي تجول في

أن يكون عمره ١٨ سنة، فراجع المحكمة، فتم تكبير عمره سنة واحدة، وتم تغيير تاريخ الميلاد إلى ٢٧ أبريل ١٩٤١، وذلك هو المسجل رسميا في بطاقة هوية الأستاذ فتح الله كولن اليوم.(المحرّر)

أذهان الشباب ولاسيما شباب الجامعات، وأوساط الحرفيين والمثقفين؛ بل إنه عندما شعر بأنه يمتلك أدوات الدفاع عن الإسلام في هذا العصر، اقتحم عالم الحوار مع المثقفين والعلماء مع الحب والتسامح ونبذ الكراهية في جميع الأقاليم التركية، بل تجاوز ذلك إلى العالمية.

إنه على غرار العلاّمة بديع الزمان النورسي أصبح مؤمنًا بأن العالم رغم أنه قرية صغيرة يحتاج إلى العقيدة وإلى المنهج المستقيم، ولا بد -بالتالي- من تعاون عالمي بين أصحاب الأفكار السديدة والباحثين عن الحق لملء الفراغ الإيماني بالله وبإنسانية الإنسان والحق، حتى لا يتقدم الشر وبالتالي يَسودُ الباطل.

إننا يجب أن نعترف بأن هذا الواعظ كان نسيج وحده.. لقد عاش في المسجد لله، وقلّما يخرج منه إلا لضرورات مادية أو معنوية.. ينهل من كنوز العلم ويربّي نفسه على تحقيق مصلحة الإنسانية جمعاء، إنما كان ينطلق من فقهه لتلك الشمس المتوهجة التي عمّت أرجاء الأرض خلال قرون البعثة المحمدية، ألا وهي شمس الرسالة القرآنية.. إنما كان ينطلق من الفقه الأعمق بالقرآن وبالرسول وبالحياة، الذي كان حيز تطبيق للقرآن كله ولهذه العالمية التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

بين التدريس والوعظ

عندما بلغ محمد فتح الله العشرين من عمره عين إماما في جامع "أُجْ شَرَفَلِي" في مدينة "أَدِرْنَة"، حيث قضى فيها سنتين ونصف السنة في جوّ من الزهد ورياضة النفس، وكان قد قرر المبيت في الجامع وعدم

الخروج إلى الشارع إلا لضرورة.

وحين جاء موعد أداء الخدمة العسكرية، أداها في "مَامَاك" و"إِسْكَنْدَرُون"، ثم رحل إلى أَدِرْنَة، ومنها نُقل إلى "قِرْقْلاَرْ أَلِي"، ثم نقل إلى مدينة إِزْمِير عام ١٩٦٦م.

في إِزْمِير بدأ عمله الدعوي في جامع "كَسْتَانة بَازَاري" في مدرسة تحفيظ القرآن التابعة للجامع، ثم عمل واعظا متجوّلا، فطاف جميع أنحاء غرب الأناضول. وفي عام ١٩٧٠م هداه الله إلى إقامة المخيمات للشباب، وكان في هذه المخيمات يربّي النفوس والعقول ويطهّرها من أدرانها، ويذكّرها بخالقها وربّها. وكانت النفوس عطشى والأرواح ظمأى إلى مثل هذا المرشد الذي ينير أمامها الطريق إلى الله تعالى وإلى رسوله الكريم ﷺ.

في ١٢-٣-١٩٧١م اعتقل الشيخ فتح الله -بعد الإنذار العسكري الموجه إلى الحكومة آنذاك- وذلك بتهمة "محاولة تغيير الأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للنظام القائم واستغلال الشعور الديني للشعب، وذلك بالقيام بتشكيل جمعية سرّية للوصول إلى هذا الهدف".

دام اعتقال كولن ستّة أشهر، وهي المدة التي انقضت في محاكمته، ثم بعدها أطلق سراحه وعاد إلى وظيفته بعد صدور العفو العام. وأرسلوه إلى مدينة أَدْرَمِيت، ثم نقل منها إلى "مَانِيسَا" ومنها إلى "بُورْنُوفَا" في محافظة إِزْمِير، حيث بقي هناك إلى سنة ١٩٨٠م.

في هذه السنوات كان "كولن" يجوب البلاد طولا وعرضا يلقي خطبه ومواعظه على الناس في الجوامع، كما كان يرتب المحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية والفلسفية والفكرية، ويعقد الندوات والمجالس

واللقاءات الخاصة، يجيب فيها على الأسئلة الحائرة التي تجول في أذهان الناس وخاصة الشباب؛ فكانت أجوبته بلسما شافيا لعقول وقلوب هؤلاء الشباب والناس، مما جعلهم يلتفون حوله ويطلبون إرشاداته.

قامت الجموع التي حفّزها الأستاذ كولن -دون انتظار أي نفع، وضمن إطار القوانين المرعبة في تركيا- بإنشاء العديد من المدارس والأقسام الداخلية، وبإصدار الجرائد والمجلاّت وإنشاء المطابع وتأليف الكتب ومحطات الإذاعة والتلفزيون. وبعد انهيار الاتّحاد السوفيتي انتشرت المدارس في العالم بأسره، وتم الاهتمام بالأخص بدول آسيا الوسطى التي عانت من الاحتلال الروسي ومن الإلحاد الشيوعي سبعين عاما تقريبا.

الواعظ داعية الحوار

بدأ الأستاذ فتح الله كولن ولاسيما بعد عام ١٩٩٠م بحركة رائدة في الحوار والتفاهم بين الأديان وبين الأفكار الأخرى، متسمة بالمرونة والبعد عن التعصب والتشنج، ووجدت هذه الحركة صداها في تركيا وخارجها. ووصلت هذه الحركة إلى ذروتها في الاجتماع الذي عقد في الفاتيكان بين الأستاذ فتح الله وبين البابا إثر دعوة البابا له.[٤]

لقد آمن "فتح الله" بأن العالم أصبح -بعد تقدم وسائل الاتصالات- قرية عالمية، لذا فإن أي حركة قائمة على الخصومة والعداء أو العزلة لن تؤدي إلى أي نتيجة إيجابية، وأنه يجب الانفتاح على العالم بأسره بالعقل والوجدان، وإبلاغ العالم كله بأن الإسلام دين الرحمة للعالمين،

---

[٤] تمت الزيارة في ٨ فبراير ١٩٩٨م.

وأنه ليس قائما على الإرهاب -كما يصوره أعداؤه- وأن هناك مجالات واسعة للتعاون بين الإسلام والمسلمين وبين الأديان الأخرى وأتباعها المخلصين للإنسانية.

داعية يولد للإنسانية كلها

من أيادي الله عليّ -وأياديه لا تحصى- أني تعرّفت على صديق حبيب عاشرناه -فاعتقدنا وما زلت- أنه وليّ من أولياء الله الصالحين في هذا العصر، وقد اندمجت أرواحنا على بعد المزار، فأنا مصري وهو تركي، إلا أننا أصبحنا جسَدين في روح واحدة، تراه في الدنيا يتحرك ويمشي ويأخذ بكل الأسباب في عبقرية هادئة مغلفة مستورة بثوب الإيمان، "إيمان التقي الخفي"، إنه "محمد أنس أركَنه".. هذا الإنسان أظنّه أخذ من أستاذه "فتح الله كولن" بعض روحه وصفائه وإخلاصه وحبه للناس، وتفانيه في العمل للدعوة ولله بإخلاص شديد. وقد اختار الله صديقي -أنَس- كما أسمّيه ليكون القلم الذي يحاول أن يدخل إلى عالم فتح الله كولن، وأن يكتب كتابًا يدل على قدرته التحليلية عن حياة كولن النفسية والوجدانية، وعلاقته بالله التي لا يسمح لأحد أن يعرف عنها إلا القليل.

ولهذا لم يكن أمامي إلا أن ألجأ إلى كتاب صديقي محمد أنَس أَرْكَنَه لأقتبس منه بعض ملامح العالم الداخلي والشخصية الجوانية الخفية للأستاذ فتح الله كولن "خُوجَا أفَنْدي" (بالتعبير التركي).

في حديثه عن الأستاذ كولن يقول المفكر "محمد أنس أركَنه": "إن الإسلام هو المصدر الأساسي الذي يوجه دنيا الفكر والحركة للجماعات الإسلامية، والمهم كيفية فهمها للإسلام وتفسيرها له وكيفية نقله إلى

المجتمع، أو كيف تقوم -إلى جانب تفسيرها للأسس الإسلامية- بإنشاء الروابط والعلاقات مع القيم الاجتماعية في ظل هذه المدنية الحديثة، وكيف تتعامل مع مرحلة الثقافية العالمية ومع أصحاب وجهات النظر والآراء المختلفة"[٥].

"وعندما قمنا بتحليل الآليات الداخلية والمعنوية لحركة فتح الله كولن رأينا أنها: نتاج جديد لتقاليد إسلامية ربّانية قديمة جُعلت متلائمة مع شروط المجتمع الحديث وظروفه، ولبّها يكمن في مبادئ الزهد والتقوى والإحسان، وهذه المبادئ هي الأسس المعنوية للإسلام"[٦].

"ولا بد من الإشارة إلى أن براعة فتح الله كولن ومهارته في الخطابة أسهمت بشكل كبير في إعطاء شكل معين وسمة معينة لحركته، فاستطاع بقابليته الخطابية هذه جلْبَ انتباه الجماهير وإثارةَ اهتمامهم. وفي أحاديثه وخطبه يُلاحظ أنه -بجانب كونه مفكّرًا غزير العلم والمعرفة- يحرك العواطف والأحاسيس أيضًا، أي إنه خطيب على المنابر بوجدانه وقلبه كما يخطب بفكره وعقله. لذا فكما يتم تحليل مقالات فتح الله كولن ونشاطاته الثقافية الاجتماعية، يجب تحليل شخصيته من خلال ألفاظه الشفوية وأحاديثه الثقافية"[٧].

وفي حديثه عن حركة الأستاذ فتح الله كولن يقول: "لا شك أن لهذه الحركة "طابعًا دينيًّا" ولكننا عندما ندقق بنْيتها التي اكتسبتها على النطاق

---

[٥] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة ١٤١٠هـ، ص:١١.

[٦] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٢.

[٧] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٣-١٤.

العالمي في هذا الموقع الجغرافي، نرى أنها تملك أيضًا "هوية اجتماعية وثقافية" عالمية. وعندما قمنا بتناول ماهيتها الدينية اتضحت الطبيعة الروحانية والإنسانية المتسمة باللين والمسامحة التي تبنّاها الأتراك في هذه البقعة الأرضية إبان تعرفهم على الإسلام واهتدائهم بهديه. لأن الجذور التاريخية لمشروع الحوار والمسامحة والابتعاد عن التعصب، ترجع إلى دخول الأتراك الإسلام على يد المتصوفة. حيث كانت هذه سمة الحركات الصوفية (السنّية) للأتراك المسلمين في الأناضول التي كان شعارها: "توقير الخلق والإنسان"[٨].

"إن الإسلام دين واسع المدى والأفق -بلا حدود-، لذلك فهو دين عالمي. وقد توجّه الأستاذ فتح الله كولن إلى مشاعر الخير والمسامحة الثرة الكامنة داخل الإنسان التركي وحرّكها وأثارها. إن هذه التضحية للإنسان التركي مظهر من مظاهر فهمه العميق للإسلام. وهنا تكتسب رسالة فتح الله كولن أهميتها. فالشعب التركي كريم ومعطاء، وقد لاحظ فتح الله كولن عمق هذا الكرم والعطاء الموجود عند الشعب التركي. ولكن لكي لا يتم استغلال هذا الكرم استغلالاً سيئًا فقد اعتنى فتح الله كولن عناية خاصة بتوجيه هذه العواطف والمشاعر نحو المصالح العليا للمجتمع، وحث السير ضمن هذا الإطار باستمرار وبلا توقف. وهكذا أوجد فهمًا جديدًا للتضحية والتساند الجماعي في المجتمع"[٩].

"لقد اهتم فتح الله كولن بالعقل والفكر وتزويدهما بالعلم والحكمة والمعرفة من جهة، وبالقلب والوجدان وتقويمهما بعوامل الخير والإحسان

---

[٨] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١١-١٢.

[٩] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٥.

من جهة أخرى"[١٠].

"وهكذا نكتشف جانبين من شخصيته، الجانب الأول: هو "علمه"، والثاني: هو "عرفانه"؛ فهو يملك معلومات واسعة في العلوم الدينية وفي الثقافة الغربية وفي الفلسفة وفي المشاكل الاجتماعية والثقافية للعالم الحديث. فمن هذه الناحية تظهر أمامنا هويته كعالم ديني وكمفكر عقلاني في جميع الساحات هذه. وهو باستنادٍ إلى مخزون معلوماته وإلى تراكم تجاربه قَدم في شخصه أنموذجًا مثاليًّا في أفكاره النيرة وآرائه العقلانية تجاه العالم. أما الجانب الثاني من شخصيته -أي الجانب السلوكي والعرفاني- فهو يحتوي على معلوماته العرفانية حول الوجود والكائنات، وعلى تجاربه في هذا الخصوص"[١١].

"إن فتح الله كولن هو صورة للتراث الإسلامي في العصر الحديث. ولم أصادف شخصيًّا في حياتي إنسانًا آخر يملك هذا المستوى الرفيع من المعرفة ومراقبة النفس في كل شأن من الشؤون.. لا محل للفوضى في حياته؛ فهو يعيش بنظام الساعة ودقتها، فكأنه اتخذ من النظام المدهش السائد في الكون أساسًا لحياته. ويمكن مشاهدة هذا الأمر في جميع شؤونه بدءًا من أبسط حركاته، ووصولاً إلى قيامه بتخطيط الكثير من الفعاليات والأنشطة. فكأننا أمام عقل يعمل بإيقاع منظم على الدوام.. وحساس جدًّا أمام العناصر المعنوية كحساسيته أمام العناصر المادية.. نظراته وأطواره وقورة جدًّا، وهذه النظرات تبدو وكأنها لا تلامس المظاهر

---

[١٠] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٦.

[١١] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٥-١٦.

الخارجية بل تنفذ إلى الأعماق"[١٢].

"عندما ننظر من أعتاب دنيا إدراكنا العقلي المعاصر، نرى أن فتح الله كولن يملك شخصية معنوية وفكرية قوية، قد عركته تجارب سنين طويلة في دنيا الفكر، فوقف بشكل مهيب يخاطب هذا العصر الذي ضعفت فيه الروح والفطرة السليمة، وضعف فيه الإدراك الصحيح. ولا يحس الأشخاص القريبون منه في ظل الثقل الفكري والمعنوي له بالراحة؛ لأن عليهم أن يكونوا يقظين على الدوام وفي جو روحي عميق.. ولا يمكن الولوج إلى عالمه بأحاسيس ومشاعر تميل إلى الدنيا ومتاعها المادي ومصالحها ومنافعها. فلكي تلج إلى عالمه عليك أن تتجاوز حدود عالمك الشخصي وتتعدّاه. وبالمقابل هو أيضا لا يساعدنا كثيرًا على فهمه وتحليل شخصيته بعمق، لأنه يقوم بإخفاء العديد من الأمور المتعلقة به ويسترها بسبب تواضعه الجم"[١٣] ورغبته العميقة في التجرد والإخلاص.

---

[١٢] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:١٨-١٩.

[١٣] فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أَرْكَنَه، ص:٢٠-٢١.